وكان قبل ذلك السباع والطيور تستأنس بآدم فلما قتل هابيل هربت منه الطير
والوحش وسكنت الأشجار وحمضت الفواكه وملحت المياه واغبرت الأرض وقيل بنوا
إسرائيل ولبني لشيء فبقي سنة لا يدفن في بني آدم قال الله تعالى ثم أماته فأقبره أي
جعل له قبرا يواريه فيه إكراما ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض يأكله الوحوش والطيور
والكلاب حين يبتلى أي وقت سؤاله في قبره وما أتى به من الله تعالى النبي المختار
صلى الله عليه وسلم اعلم أيها الناظر في هذه الفوائد العظيمة هداك الله أي دلك على سبيل
الاستقامة بلطف ومن أسمائه تعالى الهادي وهو الذي بصر عباده طريق معرفته حتى
أقروا بربوبيته للرشاد وهو نقيض الغي وهو الهدى والاستقامة يقال رشد
يرشد رشدا من باب تعب تعبا ومن باب قتل قتلا بالضم الهمزة موفقا وهو خالق
قدرة الطاعة في العبد ولما كان التوفيق لم يذكر في القرآن إلا في موضع واحد
وهو قوله تعالى وما توفيقي إلا بالله للطرق جمع طريق يذكر ويؤنث لغتان فصيحتان
السداد أن الذي عليه أهل السنة والجماعة من الاعتقاد الصحيح الذي من زاغ عنه ضل
ووقع في بحر الطغيان حجج جمع حجة وهو البرهان على المدعى القاطع للخصم فهي
أمضى من الأسنة في نفاذها في البدن فتخنقه حالا ولما كانت الحجج القاطعة تخص
خصم الخصم فلا يقدر على ردها استعار لها ذلك من الأسنة وكبير أهل السنة والجماعة
وإمامهم أبو الحسن الأشعري وكبير المعتزلة ورئيسهم واصل بن عطاء وسبب تسميتهم المعتزلة
ونحن أهل السنة والجماعة أن واصل بن عطا اعتزل مجلس الحسن البصري رضي الله عنه لقوله
أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر وبحث منزلة بين المنزلتين الإيمان والكفر فقال الحسن
قد اعتزل عنا فسموا المعتزلة وهم سموا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم
بوجوب ثواب المطيع على الله تعالى وعقاب العاصي ونفي الصفات القديمة عنه وتسميتهم
أنفسهم أصحاب التوحيد وأهل السنة يقولون توحيدهم يبطل عددهم وعددهم يبطل
توحيدهم أما الأول فلأن مراد الموحد بقولهم إنه تعالى صفة لم تكن أمرا ولا تلاهما وكان التعجب يقم
منه على بعض الأفعال لهما وأما الثاني فلأن أفعال المخلوقات إذا كانت بخلقهم
كان له شركاء في الخلق فلم يبق التوحيد الحقيقي ثم إنهم توغلوا في علم الكلام وشاع
مذهبهم إلى أن قال الشيخ أبو الحسن الأشعري لأستاذه أبي علي الجبائي ما تقول في
ثلاثة إخوة مات أحدهم كبيرا طائعا والآخر كبيرا عاصيا مات على كبره لم يتب
والثالث مات صغيرا فقال إن الأول يثاب بالجنة وجوبا والثاني يعاقب بالنار وجوبا
والثالث لا يثاب لعدم طاعته ولا يعاقب لعدم معصيته قال الأشعري معترضا على

فاعلم

فأعلمهم من وجوب رعاية الأصلح على الله فإن قال الثالث يا رب لم أمتني صغيرا
وما أبقيتني حتى أكبر فأومن بك وأطيعك فأدخل الجنة قال الجبائي المصحح يقول الباري
وطاعتي هو الأصلح لي فعلتها فقال يقول الرب سبحانه وتعالى إني كنت أعلم منك أنك لو
كبرت لعصيت فدخلت النار فكان الأصلح لك أن تموت صغيرا قال الأشعري فإن قال
الكبير العاصي يا رب لم لم تمتني صغيرا لئلا أعصي فلا أدخل النار فإن هذا هو
الأصلح لي فعلتها فماذا يقول الرب فإن هذه القاعدة نقضت الصغار ولم تنهض
الكبير فبهت الجبائي أي انقطعت حجته وسكت وتحير فهل لو قال الجبائي في جواب الثالث
إن الإيجاد والإبقاء تبين ما يجب على الله من الواجب المطلق حتى لا يرد عليه الإلزام
كإعطاء العقل ليتميز به خيره من شره والقدرة ليختار خيره وإرسال الرسل لتذكيرهم
فإنهم لا يجوزون ذلك وقالوا لولا أن التكليف بالطاعة بلا إعطاء أسباب تحصيلها قبيح يجب
على الله تركه بمقتضى حكمته وهذا كله على رأيهم الفاسد وأما على رأي أهل السنة فلا يجب
على الله شيء أصلا بل يفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل له أن يعذب الطائع ويثيب العاصي لكن
ثواب المطيع واجب شرعا أي بالتزامه لا بالعقل كما يعذب الكافر شرعا لا عقلا واعلم أن
المعتزلة يوجبون على الله أمورا منها اللطف ومنها الثواب على الطاعة ومنها العقاب
على الكبائر قبل التوبة ومنها أن يفعل الأصلح لعباده في الدنيا ومنها أن لا يفعل
ما هو قبيح عقلا فبعد ذلك ترك الأشعري مذهبه واشتغل هو ومن تبعه بإبطال رأي
المعتزلة وإثبات ما ورد من السنة وهي طريقته عليه الصلاة والسلام قولا وفعلا ومضى
عليه جمهور الصحابة فسموا أهل السنة والجماعة أن سؤال الملكين منكر ونكير حق يجب علينا الإيمان
به والإيمان به فرض لأنه معلوم من الدين بالضرورة أتى به القرآن العظيم بالإشارة لا
بالتصريح ووافقت أي أيدت الإشارة عن النبي صلى الله عليه وسلم تواترته أي السؤال الأحاديث
عن النبي صلى الله عليه وسلم وتواترها بالمعنى وهو القدر المشترك مما دل عليه كل خبر الخبر
منها متواتر لاشتراكها كلها في الدلالة عليه وإن كان مضمون كل واحد منها ليس كذلك لأنه
لم يخرج عن كونه خبر الواحد التي قد بلغت سبعين حديثا عند العدة قال الله تعالى
يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وقد ثبت أن الآية نزلت في عذاب
القبر إنما علمه صلى الله عليه وسلم بالمدينة أحسب أن عذاب القبر إنما يؤخذ من هذه الآية بطريق
المفهوم في حق من لم يتصف بالإيمان وكذا بالمنطوق في آل النار يعرضون عليها غدوا
وعشيا في حق آل فرعون وأن الحق بهم من كان على حكمهم من الكفار وسيأتي بيان ذلك أيضا

Copyright King Saud University